ظاهرة الالتفات في النص القرآني

م.د.حسن سعيد الموسويّ

جامعة العميد

The phenomenon of reversal in the Qur’anic text

Dr. Hassan Saeed Al Mousawi

ملخص البحث

الحمدُ لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين أبي القاسم محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

أمّا بعد:

فتُعدُّ ظاهرة الالتفات أو ما يُعرف بالعدول ظاهرة أضفت على النص القرآني جمالية و بهاءً وزادته رونقا فوق رونقه، ولم تقتصر هذه الظاهرة على نمطٍ واحد في الاستعمال القرآني بل نجدها متنوعة، إذ شملت البناء النحوي فضلا عن التغاير المعجمي للمفردات وهذا ما يلاحظه القارئ الكريم لأصل البحث المتواضع واليسير، وما توفيقي إلّا بالله.

الكلمات الافتتاحية: الالتفات ـ العدول ـ البناء النحوي ـ التغاير المعجمي.

Abstract

The phenomenon of turning around, or what is known as refrain, is considered a phenomenon that has added beauty and splendor to the Qur'anic text; rather it increased its splendor even more. This phenomenon was not limited to one pattern of Qur'anic usage, but rather we find it diverse, as it included the grammatical structure as well as the lexical variation of the vocabulary. This is what the honorable reader will notice due to the simple origin of the research.

Keywords: turning, reversal, grammatical structure, lexical variation.

مقدِّمة البحث

الحمدً لله حمدا يبلغ رضاه، والصّلاة والسلام على خير برايا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

أمّا بعد:

فقد تشرفت اللغة العربية بأنّها كانت لغة أقدس كتاب سماوي عرفته البشرية، ذلك السفر الخالد في عالم الوجود الذي لا تنتهي أسراره ولا يمكن لأي باحث أن يسبر غوره، فالمُبْحِر فيه سيبقى على الساحل يراوح مكانه،ولكني حاولتُ في هذا البحث المتواضع أنْ أسلط الضوء على إحدى الظواهر الإبداعية للنص القرآني، ألا وهي ظاهرة الالتفات أو ما تعرف بالعدول، واقتضت خطة البحث تقسيمه على ستة مباحث على النحو الآتي:

١- المبحث الأول: الالتفات في صيغ الأفعال.

٢- المبحث الثاني: الالتفات في الصيغ عدديا.

٣- المبحث الثالث: الالتفات في الضمائر.

٤- المبحث الرابع: الالتفات في الأدوات.

٥- المبحث الخامس: الالتفات في البناء النحوي

٦- المبحث السادس: الالتفات في المعجم.

يسبقها تمهيد ويتلوها خاتمة أودعتُ فيها أهم النتائج التي توصلتُ إليها في هذا البحث، والله الموفّق.

ظاهرة الالتفات في النصّ القرآنيّ

تمهيد

من المسلّم به أنّ مواضع الألفاظ وتوزيعها ونسقها في القرآن الكريم يخضع للعناية الإلهية ممّا لا يسوغ معها تغيير في موضع لفظة أو صيغتها، أو بنائها فإنّ في ذلك ضياعًا لجمالية الأسلوب وتشتتًا في المعنى المطلوب، ونحن إذ نتتبع الظواهر والأساليب

القرآنية نتلمس ذلك النسيج اللغوي الذي تتجلّى فيه ملاءمة المحتوى للأسلوب وبهذا فإنّ التمازج الأعظم بين الأسلوب والمحتوى الذي ينماز به التعبير القرآني قد جُسّد بمجموعة من الظواهر القرآنية التي تحتاج إلى منهج تكاملي وشمولي في دراستها لتذوّق هذا التعبير عن طريق الغوص في أعماق تلك الظواهر، وارتأيت في بحثي هذا أنْ أتناول ظاهرة الالتفات في النص القرآني لكونها إحدى الظواهر التي أبرزت دقة هذا النص وروعته وقبل كلّ شيء لابُدّ لي من التعريف أولا بمفهوم الالتفات عموما لأنتقل منه إلى هدف البحث الرئيس:

- يقول ابن الأثير في حدّ الالتفات:((وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله فهو يقبل بوجهه تارة كذا وتارة كذا، وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة ؛ لأنّه ينتقل من صيغة إلى صيغة كالانتقال من خطاب حاضر إلى غائب، أو من خطاب غائب إلى حاضر، أو من فعل ماضٍ إلى مستقبل، أو من مستقبل إلى ماضٍ))[1]، وقد يُعرف بالعدول[2]

صور الالتفات في النص القرآني

المبحث الأول

١ – الالتفات في صيغ الأفعال:

وردَ الالتفات في صيغ الأفعال في القرآن الكريم ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيْدًا عَلَيْهِم مِنْ أَنْفُسِهِم وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدا عَلَى هَؤلاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تبْيانًا لِكلِّ شَيءٍ وّهُدًى وَرَحْمَةً وَبشْرَى للْمسْلِمِيْنَ﴾(النحل / ٨٩)

بدأ الإبلاغ الإلهي الذي يصفُ موقف الشهادة والشهداء يوم القيامة بالفعل المضارع(نبعث) وذلك عندما كان المشهد منحصرا في سائر الأنبياء الذين يبعثون شهداء كلّ على أمته، لكن حينما التفت السياق إلى طريقة بعث النبي محمد (عليه أفضل

الصلاة والتسليم) وشهادته حصل العدول للفعل الماضي(جاء)، وفي تفرّد النبي(عليه أفضل الصلاة والتسليم) بالخطاب بعد الإخبار عن بعث الرّسل(صلوات الله عليهم) بطريقة الغيبة، ثم العدول من فعل(البعث) إلى فعل(المجيء) ولكلّ منهما دلالته الخاصّة فـ(جاء) يأتي غالبا لما هو شديد وصعب وقوي فطابق الموقف الإلهي الخاص بالنبي محمد(صلى الله عليه وآله وسلّم) لعظمته وسمو منزلته والعدول من صيغة المضارع إلى صيغة الماضي عند خطابه، كلّ تلك القرائن تشعر بأفضليته صلوات الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين على سائر الأنبياء والمرسلين وأفضلية شهادته في ذلك اليوم على شهادتهم، وأنّه لهذا وذاك يجاء به شاهدا قبل بعثهم شهداء على أممهم[٣]، وفي الآية نكتة يستدلّ عليها بهذا الالتفات من الفعل المضارع إلى الفعل الماضي فقوله تعالى(وجئْنا بِكَ شَهِيدا عَلَى هَؤلَاء) يُشْعر أنّ شهادته (عليه أفضل الصلاة والتسليم) ليست على أمته فحسب بل هي على الأمم السابقة وعلى شهدائها وهذا ما ذهب إليه ورجّحه العلامة أبو السعود في تفسيره[٤].

ويسوق الأستاذ الدكتور (حسن طبل) الأدلة التي يستند إليها في ميله لهذا الترجيح ـ أي إنّ نبينا المصطفى (عليه افضل الصلاة والتسليم) شهيدٌ على الأمم السالفة وعلى شهدائها وعلى أمته بطبيعة الحال ـ منها أنّ شهيد كل أمّة (مِنْ أنفُسِهِمْ) كما عبّرت عنه الآية المباركة، في حين جاء وصف النبي الخاتم (صلى الله عليه وآله وسلّم) خاليا من ذلك ممّا يعني أنّ شهادته مطلقة وليست مقيّدة بأمّته دون غيرها، ومن الأدلة أنّ الآية الواردة بعد وصفه (عليه أفضل الصلاة والتسليم) بالشهادة قالتْ (وَنزَلْنَا عَلَيْكَ الِكتَابَ تبْيانًا لِكلِّ شَيءٍ)) وفي ذلك ـ والله

العالم ـ أنّ الله اختصه صلوات الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وآثره بهذا الكتاب المهيمن على ما سبقه من الكُتُبِ بأنْ تكون لشهادته يوم القيامة صفة العموم والهيمنة على شهادات سابقيه من الرّسل[٥]، ويرى السيد الطباطبائي((أنّ المراد بـ "هؤلاء" في قوله تعالى " وجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاء " الشهداء دون عامّة الناس، فالشهداء شهداء على الناس والنبي محمد " ص" شهيد على الشهداء، وظاهر الشهادة على الشاهد تعديله دون الشهادة على عمله فهو صلوات الله عليه شهيد على مقامهم لا على أعمالهم، ولذلك لم يكن من الواجب أنْ يعاصرَهم ويتّحدَ بهم زمانا))[٦].

ومن أمثلة الالتفات من المضارع إلى الطلب ما تحكيه الآية الكريمة على لسان النبي هود(عليه السلام) ﴿إِنْ نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِي بَرِيءٌ مِمّا تُشْرِكُونَ﴾(هود/ ٥٤).

((تضمنت هذه المقولة ـ التي جاءت على لسان نبي الله هود ـ "عليه السلام «عدولا من صيغة المضارع» أُشهِدُ اللهَ" إلى صيغة الطلب "واشْهدُوُا " وذلك لإبراز البون الشاسع بين الإشهادين، وللدلالة على أنّ الثاني منهما ليس إشهادا حقيقيا، وإنّما أمرهم على سبيل السخرية بهم))[٧]، وفي ذلك يقول الزمخْشري:((لأنّ إشهاد الله على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وشدّ معاقده، وأمّا إشهادهم فما هو إلّا تهاون بدينهم، ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب، فعدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما))[٨]، وفي الميزان يقول السيد الطباطبائيّ:((فأمّا إشهاده الله فليكون تبرّيه على حقيقته وعن ظهر القلب من غير تزويق ونفاق، أمّا إشهاده إياهم فليعلموا به ثم يشاهدوا ما يجري عليه الأمر من سكوت آلهتهم

وعجز أنفسهم من الانتقام منه ومن تنكيله))[٩]، وبالعموم فإنّ ثمة فرقا بين الإشهادين أدّى إلى العدول من الفعل المضارع في " أُشْهِدُ الله " حيث تصديق هذه البراءة وتوثيقها بشهادة إلهية إلى فعل الأمر(وَاشْهدُوا) الذي يلزمهم الحجة في قطع الأواصر بينه وبينهم وأنّ لا عودة من هذه البراءة ما داموا على هذا الشرك بالله.

وبعد عرض هذه الصور من الالتفات في صيغ الأفعال من حيث الزمن، أعرض لأخرى يتجلّى فيها الالتفات في صيغ الأفعال من حيث البناء قال تعالى ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤمِنِيْنَ﴾(الأنبياء / ٨٨).

يدل المعنى اللغوي للفعل نجى على: الانفصال عن الشيء ومنه نجى فلان من فلان وأنجيته ونجّيته[١٠]، وإنّ(("فعّل" و"أفعل" بمعنى واحد))[١١] ولكن(("فعّل" يفيد التكثير والمبالغة))[١٢]، ولعلّ هذا ـ والله العالم ـ سر العدول في الآية من الفعل(نجّينا) المضعّف إلى الفعل الآخر(ننجي) الخالي من التضعيف حيث تقف وراء ذلك الفعل المضعّف أسرار تلك المبالغة في النجاة وهي ترعى النبي يونس " عليه السلام " في الظلمات الثلاث: ظلمة البحر، وظلمة الليل، وظلمة بطن الحوت ومع تكاثر تلك الرعاية الإلهية والإنجاء المصحوب بتسبيح ذلك النبي المُبْتلى وكثرة ذكره لله وإقراره بترك الأولى في الطاعة ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِيْنَ﴾(الأنبياء / ٨٧)، وفي هذا الالتفات دلالة أخرى تسترعي الانتباه فقد عدل فيه من(نجّى) التي تدلّ على الإنجاء على دفعات، إلى(أنجى) التي تشير إلى الإسراع في الإنجاء، يقول الدكتور فاضل السامرائي:((الملاحظ أنّ القرآن الكريم كثيرا ما يستعمل " نجّى " للتلبّث والتمهّل في التنجية

ويستعمل " أنجْى " للإسراع فيها فإنّ " أنجى " أسرع من " نجّى " في التخليص من الشدّة والكرب))[١٣].

ومن مصاديق ذلك ما ورد في سورة البقرة من قوله تعالى ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِحُوْنَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحيْونَ نِسَاءِكُمْ وَفِيْ ذَلِكَم بَلَاءٌ مِن رَبكّم عَظِيْمٌ وإذ فرقْنَا بِكم البَحْرَ فأنجِينَاكُم وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعُونَ وَأَنْتُم تَنظُرونَ﴾(البقرة / ٤٩-٥٠).

فالنص يعرض مشهدين: الأول فيه إنجاء أعقب محنا وشدائد ناءَ تحت وطْأتها بنو إسرائيل من تعسُّف فرعون وأزلامه فهو إنجاء مرّ بمراحل الابتلاء والمحنة، أمّا المشهد الآخر فيبدو فيه الإنجاء الإلهي سريعا فما إنْ فلق البحر لقوم موسى فعبروا حتّى أطبق على فرعون واتباعه فأغرقهم وبنو إسرائيل ينظرون معجزة الله في نجاتهم، وعودا على إنجاء النبي يونس "عليه السلام" فإنّنا إذ نستعرضُ مراحل نجاته من شدّته تتبين لنا دلالة(نجّى) شاهدة على تقلبه بين يدي الرحمة الإلهية من مرحلة لأخرى حتى بلوغ النجاة ولعلّنا نستضيء للتيقن من ذلك بقوله تعالى ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيْمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةٌ مِنْ يَقْطِيْنٍ وَأَرْسلْنَاهُ إلى مِائة ألْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾(الصافات / ١٤٥- ١٤٧)، إذ تمرُّ مسيرة الإنجاء من إخراجه من بطن الحوت للعراء سقيما إلى إنبات شجرة اليقطين عليه يستظلُّ بورقها ثمّ إلى إرساله ثانية إلى قومه وقد آمنوا بعد مشاهدة العذاب فهو دخول القائد الظافر بعد خوضه ساحة البلاء، غير أنّ الآية الكريمة تلتفت إلى(ننجي) في إشارة إلى سرعة نجاة المؤمنين كلّما اقتضت الحكمة الإلهية ذلك، والله العالم.

المبحث الثاني

٢- الالتفات في الصيغة عدديا:

ومنه قوله تعالى ﴿فَأْتِيَا فِرْعَونَ فَقُوْلَا إنّا رَسُولُ رَبِّ العَالَمِينَ﴾(الشعراء

/ ١٦)، وفيه((وردت لفظة " رسول " مفردة مع أنّ ظاهر السياق يقتضي تثنيتها))[١٤]، في حين إنّها وردت بصيغة التثنية في قوله تعالى ﴿فأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فأرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ﴾(طه / من الآية ٤٧) و((الرسول يُقال تارة للقول المتحمّل، وتارة لمتحمّل القول والرسالة، والرسول يُقال للواحد والجمع))[١٥]، ولقد أُجيب عن سرّ الالتفات في آية "الشّعراء " من التثنية إلى الإفراد في لفظة الرسول بتفاسير شتّى، فقيل: إنّ لفظة " رسول " من الألفاظ أو الأوصاف المشتركة، فهي تعني المرسل أو متحمّل القول تارة، والرسالة أو القول المتحمَّل تارة أخرى، فهي بمعنى المرسل في سورة "طه"، وبمعنى الرسالة في سورة " الشعراء " ومن ثمّ ثنّيت في الأولى لأنّها رسولان، وأُفردتْ في الثانية لأنها رسالة واحدة[١٦]، أمّا " الزّمخشريّ " فيجيب عن ذلك بقولين: أحدهما ما ذُكِر آنفا ـ أي إنّ لفظة " الرسول "في آية "طه" بمعنى المرسَل، وفي آية "الشّعراء" بمعنى الرسالة ومن ثمّ وحّدت كما يفعل الوصف بالمصدر نحو:(صوم، وزُور)، والآخر أنّ اللفظة جاءت بمعنى الرسول ولكنها أفردت لاتحاد الرسولين واتفاقهما على شريعة واحدة فكأنّهما رسول واحد[١٧].

وثمّة توجيه آخر لهذا الالتفات ذهب إليه الدكتور حسن طبل إذ يرى أنّ التعبير عن الخوف من بطش فرعون وطغيانه جاء في سورة " طه " على لسان موسى وأخيه هارون " عليهما السلام " فكانت التثنية، أمّا في سورة " الشعراء " فكان هذا الإعلان عن التخوف من فتك فرعون وبطشه منقولا عن النبي موسى " عليه السلام " وحده فحسُنَ أنْ تأتي اللفظة في " الشّعراء مفردة[١٨]، وقيل: ((التعبير بالرسول للفظ المفرد إمّا باعتبار كلّ واحد منهما أو باعتبار

كون رسالتهما واحدة وهي قولها " أنْ أَرْسِلْ "...، أو باعتبار أنّ الرّسول مصدر في الأصل أن يستوي فيه الواحد والجمع))[١٩]، وبعد استعراض هذه الآراء المفسِّرة لذلك الالتفات من التثنية إلى المفرد أجدني مستوحيا معنًى قد يُفاد من أجواء تلك الرسالة التي تحمّلها رسولان اتّحدا في تأدية التكليف الإلهي وصبرا على الأذى فكانا بمثابة الرسول الواحد ومن هنا كان لزاما على حملة الرسالة المحمدية السَمْحَة أنْ يستشعروا وحدة المسؤولية في تبليغها وأنْ يمثلوا جميعا فردا راسخا في ميادين الجهاد وحمل الرسالة والحفاظ عليها وإنْ تحمّلوا ألوان العذاب من أجل ذلك.

ومن صور الالتفات أيضا قوله تعالى ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾(المائدة / ٥٥).

وردت لفظة " الولي " بصيغة الإفراد وهي المرة الوحيدة التي تذكر فيها اللفظة في القرآن الكريم - على رأي الزمخشري - وكان السياق يستدعي صيغة الجمع " أولياؤكم " وذلك لأنّ استحقاق الله عزّ وجلّ بالولاية دلالة على الأصالة له وليست لغيره فجعلتْ الولاية لله تبارك وتعالى على طريق الأصالة[٢٠]، ولاشكّ أنّ المقصود بالولاية في الآية لا ينحصر في المحب والناصر فإنّ الحب والنصر يشملان جميع المسلمين فهم متحابون يعين بعضهم بعضا ويُؤتي الأغنياء منهم فريضة الزكاة، أمّا الفقراء فهم غير قادرين على دفع الزكاة، بل هم يستحقونها فهل يعني هذا عدم شمولهم بالمحبة والنصرة لعدم دفعهم الزكاة ؟ ومن هنا يتضح لنا أنّ المراد من كلمة " ولي " في الآية المباركة، هو ولاية الأمر والإشراف، وحق التصرف، والزعامة الروحية، خاصة وقد جاءت مقترنة مع ولاية نبينا المصطفى محمد " عليه أفضل

الصلاة والتسليم " وولاية الله، وتزامن مجيء هذه الولايات الثلاث في جملة واحدة[٢١]، وقد تضافرت الروايات بأنّ الآية نزلت بحق الإمام علي " عليه السلام " حيث تصدّق بخاتمه وهو راكع في المسجد النبوي الشريف بعد أن أحجم الآخرون عن التصدّق على السائل[٢٢]، ومن أمثلة الالتفات في الصيغة عدديا قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُم لِيُرْضُوكُمْ واللهُ وَرَسُولَهُ أَحَقُّ أَنْ يَرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مؤْمِنِيْنَ﴾(التوبة / ٦٢).

قيل في تحديد مرجع الضمير في الفعل (يرضوه) آراء مختلفة أرجحها أنّه يعود على الله ورسوله، وإنّما أُفرد لتلازم الرضاءين، وإنّما رُجّح هذا الرأي لمناسبة الملاءمة بينه وبين السياق الذي وردت فيه الآية الكريمة فهؤلاء المنافقون الذين تُخبر الآية عن حلفهم للمؤمنين كي يرضوهم كانوا يتعمدون الرسول(صلى الله عليه وآله وسلّم) بالإيذاء ويتقولون عليه الأقاويل وبهذا يُرجّح السياق أن الضمير في(يرضوه) عائد على الله والرّسول وأنّ في توحيده ـ عدولا عن تثنيته ـ دلالة على توحد الرضاءين، وإشعارا بأنّ إرضاءه(صلوات الله وسلامه عليه) هو في الوقت نفسه إرضاء للخالق عزّ وجلّ[٢٣]، وفي هذا الرأي رد على الثعالبي الذي جعل الرضا رضاءين إذا إنّ((رضا الرسول " صلى الله عليه وآله وسلّم " يعني رضا الله تعالى كما هو متجلٍّ من العطف بالواو التي للتشريك))[٢٤].

المبحث الثالث

٣- الالتفات في الضمائر:

ومنه قوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النّاسُ إِنّي رَسُولُ الله إِلَيْكُم جَمِيْعًا الَذي لَهُ مُلْكُ السَّماوَاتِ وَالأرضِ لَا إِلَه إِلّا هُوَ يحْيِي وَيُمِيْتُ فَآمِنوُا بالله وَرَسُولِهِ الْنَبيِّ الأُمّيّ الذيّ يُؤمنُ بِالله وَكَلِمَاتِهِ واتّبِعُوهُ لَعَلَكُم تَهْتَدُونَ﴾(الأعراف:

١٥٨).

لقد بدأتْ الآية بأسلوب التكلّم إذ يخاطب الرسول " عليه أفضل الصلاة والتسليم " الناس قائلا (إنّي رسولُ الله) ثم يأتي العدول إلى الغَيبة حيث يعلن الأمر الإلهي(فآمِنُوا بالله ورَسُولِهِ) ولو كان السياق واحدا لقيل (فآمنوا بالله وبي)، وقد جاء في هذا الالتفات نكتتان: الأولى دفع التهمة عن شخصه " عليه أفضل الصلاة والتسليم " والدلالة على أنّه لا يدعو إلى الإيمان بذاته، بل إلى اتباعه بوصفه (رسولا) اختاره الله سبحانه وتعالى لتبليغ الناس بالشريعة المحمدية الأصيلة ويهديهم إلى نهجه القويم، والأخرى أنّ التعبير بالاسم الظاهر (رسوله) قد هيّأ لاتباعه بالصفات التي أجريت عليه في الآية الكريمة من كونه " صلى الله عليه وآله وسلّم " نبيّا أميّا يؤمن بالله وكلماته، وهي صفات تؤدي أثرها في إقناع الناس ـ لو تأملوا ـ بما يدعوهم إليه من إيمان[٢٥].

المبحث الرابع

٤- الالتفات في الأدوات:

ممّا ورد من مواضع الالتفات في الأدوات قوله تعالى ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾(الزمر / ٧٣)

جاء الفعل(فُتِحَتْ) مسبوقا بالواو بخلاف الآية التي سبقتها ـ الآية ٧١ من السورة نفسها ـ وهي تصف أهل النار فقد جاء الفعل نفسه مجردا من الواو، وللمفسرين آراء مختلفة في اقتران فعل فتح الجنة بالواو فمن قائل: إنّها زائدة وإنّ الفعل في كلتا الآيتين هو جواب الشرط[٢٦]، إلى قائل: إنّها واو الثمانية لأنّ العرب لا تعطف الثمانية إلّا بالواو وأصحاب هذا الرأي لم يرتبوا دلالة تخص الآية المقترن فعلها بالواو سوى الاستدلال بأنّ أبواب الجنة

ثمانية[٢٧]، ومن قائل: إنّها واو العطف وإنّ فعل الفتح معطوف على جواب الشرط المحذوف والتقدير: حتى إذا جاءوا جاءوا وفتحت) أو معطوف على فعل الشرط والجواب مقدّر بعد ذلك والتقدير:(حتى إذا جاءوا وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين أنسوا وآمنوا)[٢٨]، وإلى قائل: إنّها واو الحال والتقدير(حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها) أمّا جواب الشّرط فهو محذوف للإيذان بأنّ ما أُعدَّ لهؤلاء المتقين من ألوان النعيم هو مالا يحيط به الوصف ولا يحدق به التعبير[٢٩].

إنّ إجالة الفكر في هذا الالتفات من الاكتفاء عن الواو في فتح الأبواب لأهل النار وذكرها في فتحها لأهل الجنة يكشف عن بعض أسرارها، وقد رجّح بعض الباحثين رأيا يذهب إلى أنّ إبراز الفرق بين فتح أبواب النار وفتح أبواب الجنة لكون أبواب النار تظل مغلقة حتى لحظة مجيء قافلة الكفر علّهم ـ أي الكفّار ـ يكفّون عن فسادهم، ويكونون صالحين ما داموا في الحياة الدنيا تأثرا منهم في الدنيا بهذا الوصف الخاص بهم يوم المحشر والحساب، أمّا أبواب الجنة فإنّها تُفْتَح قبل مجيء قافلة أهل التقوى إليها ـ أي إنّها مفتوحة للمؤمنين وهم في الدنيا من أوّل قيامهم بالعمل الصالح ـ وذلك ما يرجّح كون الواو للحال وليس للعطف لأنّ العطف بالواو لا يقتضي ترتيبا ولا تعقيبا[٣٠]، إنّ في دلالة اقتران واو الحال التي هي أكثر قبولا في التفسير من غيرها بأبواب الجنة تصويرا لها وهي مفتّحة الأبواب لا يجد المتّقون عناء الانتظار قبل دخولها بل هي في حال الاستعداد والشوق للقائهم تراها باصرتهم كما كانت قبل ذلك حاضرة في أذهانهم تراها بصيرتهم وبهذا يرفلون في نعيمها في يسر وأمان، أمّا فتح أبواب النار كما يرى المفسّرون فلا

يكون إلّا لحظة مجيء الكافرين وهنا يصعقون بهول ما كانوا لا يصدقون به ولا يتصورون له مشهدا.

المبحث الخامس

٥- الالتفات في البناء النحويّ:

ومنه قوله تعالى على لسان نبيه زكريّا " عليه السلام " ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَاءِي وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾(مريم / ٥-٦).

في الآية الشريفة التفات يتّضح في معمول فعلي الإرث فهو مفعول به لـ(يرثني) وفي الثانية مجرور بـ(مِن) و(يرث مِنْ) والسياق(خارج النص القرآني) يقتضي ورودهما على النمط الآتي(يرثني ويرث آل يعقوب) وللمفسرين رأيان في وظيفة حرف الجر(مِنْ)، الأول: إنّها للتعدية والآخر: إنّها للتبعيض لا للتعدية، لأنّ آل يعقوب لم يكونوا كلّهم أنبياء ولا علماء[٣١]، والسياق يُرجّح رأي التبعيض لأنّ زكريّا " عليه السلام " أراد لولده أنْ يكون مثالا صالحا لهذه الخلافة المعصومة رضيّا ومرضيّا وسيّدا ونبيّا ـ كما في توالي صفاته في سورة عمران الآية(٣٩) ـ وهذا الابن المؤهل لهذه المرتبة لا يمكن إلّا أنْ يرث مناهج الخير والرشاد من أهل الصلاح من آل يعقوب وليس كلّهم كذلك، ولعلّ في ذلك سر مجيء الدعاء بالإرث من مسيرة أبيه المُسدّد المعصوم.

المبحث السادس

٦- الالتفات في المعجم:

ومنه قوله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُم دِينَكُم وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُم نِعْمَتِي﴾(المائدة / من الآية ٣).

إذ إنّ للإكمال والإتمام معنًى معجميا متقاربا وهو إزالة النقص غير أنّهما يفترقان في المعنى الدلالي، قال الراغب الاصفهاني: ((كمال الشيء حصول ما هو الغرض منه))[٣٢]، وقال

أيضا: ((تمام الشيء انتهاؤه إلى حدٍّ لا يحتاج إلى شيء خارج عنه والناقص ما يحتاج إلى شيء خارج عنه))[٣٣]، وعن طريق آخر يمكن الحصول على تشخيص معنى اللفظين، فما ترتب على الشيء عند وجود جميع أجزائه بحيث لو فُقِدَ شيءٌ من أجزائه أو شرائطه لم يترتب عليه، ذلك الأمر هو التمام كما في الصوم فإنّه يفسد إذا أُخلّ بالإمساك في بعض النهار لقوله تعالى ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيلِ﴾(البقرة:/ من الآية ١٨٧)، أمّا الأثر الذي يترتب على الشيء من غير اشتراط حصول جميع أجزائه بل كلّما وجد جزء ترتب عليه من الأثر بحسبه ولو وجد الجميع ترتب عليه كلّ الأثر فذلك هو الكمال إذ يقول تعالى ﴿فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾(البقرة / من الآية ١٩٦) وقال تعالى(وَلْتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ (البقرة / من الآية ١٨٥).

فهذا العدد يترتب الأثر على بعضه كما يترتب على كلّه ويقال تمّ لفلان أمره وكمل عقله، ولا يقال تمّ عقله وكمل أمره ومحصّل الآية الكريمة أنّ الله تعالى أكمل مجموع المعارف الدينية التي أنزلها لهم بفرض الولاية وأتمَّ نعمته على المسلمين وهي الولاية التي هي إدارة أمور الدين وتدبيرها تدبيرا إلهيا إذ كانت الولاية لله ولرسوله ما دام الوحي ينزل ثمّ من الواجب أنْ يُنصّب من يقوم بذلك بعد رسول الله " صلى الله عليه وآله وسلّم " وهو ولي الأمر القيّم على أمور الدين والأمّة فالولاية مشروعة واحدة كانتْ ناقصة غير تامّة حتى إذا تمت ينصّب ولي الأمر بعد النبي وإذا كمل الدين في تشريعه وتمّت نعمة الولاية فقد رضيتُ لكم الإسلام دينا وهو دين التوحيد[٣٤]، ومن هنا تظهر النكتة في الالتفات من لفظ الكمال المختص بالشرائع الدينية إلى الإتمام الخاص بنعمة الولاية وليت

شعري كيف يتجرأ المفسرون على القرآن الكريم ويفسرون الآيات على وفق أهوائهم الخاصة فقد ذكر بعضهم أنّ المراد بإكمال الدين هو إكمال الحدود والفرائض والحلال والحرام[٣٥]، فهل كان الدين ناقصا قبل هذا اليوم وكمل بنزول هذه الآية ؟ ويفسرون إتمام النعمة بدخول مكة آمنين مطمئنين وفتح مكة كان في السنة الثامنة للهجرة والآية نزلتْ في حجة الوداع في السنة العاشرة من الهجرة وفي اليوم الثامن عشر من ذي الحجة في غدير خم حين نزل قوله تعالى﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾(المائدة/ من الآية ٦٧) فلمّا بلغ النبي أمر بنصب الإمام علي (عليه السلام) وليا للمؤمنين من بعده ونزلت الآية محور البحث[٣٦] فما لكم كيف تحكمون؟!.

خاتمة البحث

بعد هذا التطواف في رحاب القرآن الكريم عارضا لظاهرة الالتفات فيه، وقبل أنْ أدعَ يراعي يستريح أسجلُ هنا ثمار قطاف هذا البحث المتواضع، وأبرز هذه الثمار بنقطتين هامتين هما:

١- عرض هذا البحث لإحدى الظواهر التي جعلت النص القرآني يعلو ولا يعلى عليه ذلك النص الذي عجز العرب أن ياتوا بسورة من مثله ولو اجتمعوا لذلك وهذا أحد أسراره البليغة.

٢- تنوعت ظاهرة الالتفات في النص القرآني فشملتْ جوانب متعددة من اللغة ففي الجانب الصرفي وقع الالتفات في الصيغ والعدول في الآية من صيغة لأخرى تقتضيها الحكمة الإلهية، وفي الجانب النحوي حصل الالتفات في الضمائر والأدوات وغيرها وفي الجانب الدِّلالي جاء الالتفات من كلمة لأخرى ولكلّ استعمال دلالته الخاصة وكلّ

هذه الجوانب بيّنها البحث آخذا بنظر الاعتبار تبيان الدلالة والمراد من كلّ صورة التفات أوردها النص القرآني.

ختاما أقول: ربّنا لا تؤاخذنا إنْ نسينا أو أخطأنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به، والحمد لله في الأول والآخر

الهوامش:

١- المثل السائر، تح: د. أحمد الحوفي، ود. بدوي طبانة: ٢/ ١٧١.

٢- ينظر: كتاب الطراز، يحيى بن حمزة العلوي، تح: محمد عبد السلام شاهين: ١/ ٢٦٥.

٣- ينظر: الكشاف، الزمخشري: ٢/ ٦٠٣.

٤- ينظر: إرشاد العقل السليم: ٥/ ١٣٥.

٥- ينظر: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية: ٩٢.

٦- الميزان: ١٢/ ٣٤٦.

٧- أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية: ٩٢.

٨- الكشاف: ٢/ ٣٨٨.

٩- ١٠/ ٣١٢.

١٠- ينظر المفردات(مادة نجّى)، الراغب الأصفهاني، تح: هيثم طعيمي: ٥٠٥.

١١- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، د. فاضل السامرائي: ٦٢

١٢- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروز آبادي، تح: محمد علي النجار: ١/ ٢١٢.

١٣- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، د. فاضل السامرائي: ٧٠.

١٤- أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية: ١٠٤، ولا يجوز الحكم على قول الله عزّ وجلّ بهذا الفرض(يقتضي) والأولى أنْ يقول: مع أنّ ظاهر السياق يخاطب اثنين لا واحدا.

١٥- المفردات(مادة رسل): ٢٠٢.

١٦- ينظر: أسرار التكرار في القرآن، الكرماني، تح: عبد القادر أحمد عطا: ١٤٠.

١٧- ينظر: الكشاف: ٣/ ١١٠.

١٨- ينظر: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية: ١٠٦.

١٩- الميزان: ١٥/ ٢٨٣.

٢٠- ينظر: الكشاف: ١/ ٦٣٥.

٢١- ينظر: تفسير الأمثل، ناصر

مكارم الشيرازي: ٤/ ٤٦.

٢٢- ينظر: مجمع البيان، الطبرسي: ٣/ ٤٢٠- ٤٢١، وفتح القدير، الشوكاني، تح: أحمد عبد السلام: ٢/ ٥٠.

٢٣- أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية: ١٠٣- ١٠٤، والتفسير الكاشف، محمد جواد مغنية: ٤/ ٦٢.

٢٤- الوسيلة والغاية في التقديم والتأخير وعود الضمير، بحث للدكتور علي عبد الفتاح، مجلة بابل للعلوم الإنسانية، السنة الثالثة، كانون الثاني، العدد ١٥، ٢٠٠٥/ ٦٥.

٢٥- ينظر: الكشاف: ٢/ ١٦١، وتفسير أبي السّعود: ٣/ ٢٨١ ، والإتقان في علوم القرآن، السيوطي: ٢/ ٤١٩.

٢٦- ينظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تح: محمد أبو الفضل ابراهيم: ٣/ ١٩٠.

٢٧- ينظر: أسرار التكرار في القرآن: ١٣٢- ١٨٦، والبرهان: ٣/ ١٨٩.

٢٨- ينظر: درة التنزيل وغرّة التأويل، الخطيب الإسكافي، تح: عبد الوهاب رشيد أبو صفيّة، وعصام فارس الحرستاني: ٣٧٨- ٣٧٩.

٢٩- ينظر: الكشاف: ٤/ ١٤٢، وتفسير البيضاوي: ٤/ ٤٦.

٣٠- ينظر: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية: ١٥٢.

٣١- ينظر: الكشاف: ٣/ ٤٠٥، وتفسير أبي السعود: ٤/ ٥٤٦.

٣٢- المفردات (مادة كمل) ٤٠٣.

٣٣- المصدر نفسه(مادة أتم): ٢١.

٣٤- ينظر: الميزان: ١٩١- ١٩٤.

٣٥- ينظر: روح المعاني ، الآلوسي: ٦/ ٦٠، الكشّاف: ١/ ٣٢٣، تفسير أبي السّعود: ٣/ ٧.

٣٦- المصادر نفسها والصحائف نفسها.

المصادر والمراجع:

١- الإتقان في علوم القرآن، للإمام جلال الدين السيوطي الشافعي(ت: ٩١١هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢٥هـ - ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

٢- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم(تفسير أبي السعود)، للقاضي محمد بن محمد بن مصطفى العمادي(ت: ٩٨٢هـ)، خرج أحاديثه وعلّق عليه وضبط نصّه ووضع فهارسه الشيخ محمد صبحي حسن حلاق، إشراف مكتبة البحوث والدراسات، دار الفكر، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

٣- أسرار التكرار في القرآن، الكرماني، تح: عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة - مصر، ١٩٧٧م.

٤- أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، د.حسن طبل، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة - مصر، ط١، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

٥- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، العلامة ناصر مكارم الشيرازي، نشر مدرسة الإمام أمير المؤمنين " عليه السلام "، قم المقدسة - الحوزة العملية، ط٢، ١٤٠٤هـ.

٦- أنوار التنزيل وأسرار التأويل المشهور بـ(تفسير البيضاوي)، ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت: ٦٨٥هـ)، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٧- البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي(ت: ٧٩٤هـ)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ط٢، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

٨- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي(ت: ٩١٧هـ)،

تح: محمد علي النجار، القاهرة ـ مصر، ١٣٨٣هـ.

٩- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، د.فاضل صالح السامرائي، منشورات دار عمّار، عمّان ـ الأردن ط٥، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.

١٠- التفسير الكاشف، محمد جواد مغنية، دار الأنوار، بيروت ـ لبنان، ط٤،(د.ت).

١١- درّة التنزيل وغرّة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، تأليف محمد بن عبد الله المعروف بالخطيب الإسكافي(ت: ٤٢٠هـ)، اعتنى به تحقيقا وتعليقا عبد الوهاب رشيد أبو صفية وعصام فارس، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان ـ الأردن، ط١، ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م.

١٢- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تأليف أبي الفضل شهاب الدين السيد محمد الآلوسي(ت: ١٢٧٠هـ)، ضبطه وصححه علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

١٣- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، تأليف الإمام محمد بن علي الشوكاني(ت: ١٢٥٠هـ)، ضبطه وصححه أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

١٤- كتاب الطراز المتضمن أسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، السيد الإمام يحيى بن حمزة العلوي اليمني(ت: ٧٤٩هـ)، تح: محمد عبد السلام شاهين، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

١٥- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تأليف الإمام جار الله الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ) رتبه وضبطه وصححه محمد عبد السلام شاهين،

دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط٣، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

١٦- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير(ت: ٦٣٧هـ)، تح: أحمد الحوفي، ود.بدوي طبانة، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها بالفجالة، القاهرة، ط١، ١٩٥٩م ـ ١٩٦٢م.

١٧- مجمع البيان لعلوم القرآن، ألفه الإمام أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي(ت: ٥٤٨هـ)، مؤسسة الهدى للنشر والتوزيع، رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

١٨- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني(ت: ٥٠٢هـ)، ضبط هيثم طعيمي، منشورات دار إحياء التراث العربي ، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٨ م.

١٩- الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، دار الكتب الإسلامية، طهران ـ إيران، ١٣٦٢هـ.

٢٠- الوسيلة والغاية في التقديم والتأخير وعود الضمير بين اللهو والتجارة، د.علي عبد الفتاح الحسناوي، مجلة العلوم الإنسانية، السنة الثالثة، كانون الثاني، العدد ٥، ٢٠٠٥ م.